

اللغة من منظور علم الإجتماع

د. فائزة التونسي

جامعة عمار ثليجي - الأغواط - الجزائر

ملخص:

إن اللغة كنظام إجتماعي سابقة في وجودها وجود الأفراد، وذلك لأن قواعدها وأوضاعها وقوانينها العامة تنظم مجموعة القيم والأحكام والمعاني والدلالات التي ارتضاها عقل الجماعة، ومن ثم فهي تنظم عقل الأفراد وأساليب تفكيرهم، وتشكل قنوات الإتصال اللغوية الأساسية التي يتفاعل الأفراد من خلالها، ولهذا فهم يرون أنهم ملزمون بأن يصبوا قوالب تفكيرهم وأنماط سلوكهم ومواقفهم الإجتماعية وفقاً لمصطلحاتها ومعاييرها التي ارتضتها الجماعة، ولذا تعتبر اللغة من النظم التي تنمو وتتطور تلقائياً بشكل غير شعوري لأن قواعدها وأساليب التعبير ودلالاتها الصوتية وتفرع لهجاتها تتم بصورة تلقائية لا شعورية، وباعتبارها نظام مثل بقية النظم الأخرى في المجتمع وليست كيانات مستقلة فهي تعتبر كهمزة وصل بين المجتمع والثقافة والشخصية .

الكلمات المفتاحية: وظائف اللغة / اللغة كظاهرة إجتماعية / المنظورات النظرية للغة/التباين اللغوي.

تمهيد:

تعتبر اللغة الوسيلة التي من خلالها يتحقق النجاح والتفوق المدرسي والأداة التي تتم بها عملية التنشئة الاجتماعية، وتقام بواسطتها التفاعلات الاجتماعية على الصعيد المحلي أو العالمي، ذلك ما يجعل منها وسيلة يستخدمها الفرد للتعبير عن أفكاره ورغباته وأحاسيسه، بحيث تلعب اللغة أيضا دورا فعالا في تكوين شخصية الفرد الاجتماعية. باعتبارها ظاهرة اجتماعية على غرار أنها ظاهرة لغوية لما لها من نفس خصائص الظاهرة الاجتماعية. وبناء على ما سبق ذكره قمنا بتخصيص هذا المقال حول اللغة حيث عالجنا على ضوءه أهم النقاط التي يتمحور حولها موضوع اللغة من حيث وظائفها، بالإضافة إلى نظريات اكتساب اللغة، ومراحل ذلك الاكتساب، والعوامل المؤثرة في عملية ذلك الاكتساب اللغوي ونمو اللغة، وأخيرا التطرق إلى عنصر التنوع الثقافي، والتنوع اللغوي.

1- اللغة: (ماهيتها ومعناها):

تعرف اللغة من حيث معناها العام بأنها عبارة عن "مجموعة من الرموز، تعارف الناطقون بها على دلالة ومعنى كل رمز منها، ويستعملونها في التفاهم بينهم" (1). أي هي اللغة المستعملة من قبل الإنسان بصورة دائمة (سواء كانت منطوقة أو مكتوبة).

ومن ثم عرف علماء الاجتماع اللغة بأنها "نسق رمزي Sympolic System يحقق من خلالها الإنسان الاتصال بالآخرين" (2). وعندما يستخدم الشخص الرموز اللغوية في اتصاله بالآخرين فإن تلك الرموز

تعني نفس المعاني والدلالات لكل من المتكلم والمستمع، والإنسان بذلك يبتكر دائما الرموز الجديدة للإشارة إلى جوانب متعلقة ببيئته، وبذلك تعتبر اللغة من وجهة نظر علماء الاجتماع نسقا رمزيا مفتوحا Open System.

- وقد عرفت اللغة في معجم مصطلحات الأدب، بالإشارة لأكثر من جانب من الجوانب المرتبطة باللغة، فعرفت من حيث كونها وسيلة للاتصال بأنها "كل وسيلة لتبادل المشاعر والأفكار كالإشارات والأصوات والألفاظ" (3).

واللغة بذلك ضربان: لغة طبيعية، كبعض حركات الجسم والأصوات المهمة، ووضعية، وهي مجموعة رموز أو إشارات أو ألفاظ متفق عليها للتعبير عن المشاعر والأفكار.

وفي ضوء ذلك يمكن تعريف اللغة الوظيفية (لغة الإنسان) "بأنها نسق رمزي مفتوح، يحقق الاتصال وتبادل المشاعر، والأفكار بين الأشخاص، ولها قواعد التي تحكم استخدام الإنسان لمفرداتها، وللصيغ والأساليب الكلامية والتي تخضع بدورها لطبيعة المحيط الاجتماعي والثقافي لمستخدميها، واللغة بذلك تشكل ظاهرة اجتماعية تتعرض للنمو والتغير، وتختلف باختلاف الشعوب والعصور" (4).

2- وظائف اللغة:

تعتبر اللغة ضرورية في حياة المجتمعات لأنها الوسيلة الأساسية للتخاطب والتواصل والتفاعل بين الأفراد كما أنها تؤدي وظائف عديدة منها:

أ- الوظيفة الاجتماعية:

إن اللغة هي الأداة الأساسية والفعالة التي تتم بها عملية الاتصال بين الناس حيث يقول مارتيني A.Martinet في هذا الصدد أن: الوظيفة الأساسية لهذه الآلة هي الاتصال⁽⁵⁾ , وبهذا يؤكد على أن اللغة ظاهرة اجتماعية فهي تفرض وجودها على الفرد حيث يكسب من خلالها تصورات الجماعة الجمعية وعن طريقها يتحقق له الوعي الجمعي.

كما أنها وسيلة مهمة لتنظيم الأسرة، فبواسطتها تتم عملية التنشئة الاجتماعية وهي تعبر عن حضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها ويمكن أن نحصر الوظيفة الاجتماعية للغة في أنها:

تحافظ على الخبرات البشرية وتجارب الأمم، وتدوين التراث الثقافي وتحفظ به لضمان نقله من جيل إلى جيل، للاستفادة منه كما تساعد الفرد على تعديل سلوكه لكي يتوافق مع المجتمع ويزوده بالعبارات الخاصة بكل مقام⁽⁶⁾ .

وتبرز أهمية الوظيفة الاجتماعية للغة باعتبارها وسيلة لإقامة العلاقات والتواصل الاجتماعي والتي تجسد الوعي لدى الأفراد.

فهو بذلك العامل الحاسم على زيادة التلاحم والانسجام والتوازن والاندماج الاجتماعي⁽⁷⁾

ب- الوظيفة النفسية :

إن اللغة لا تؤدي وظيفة الاتصال بين الأفراد فقط بل هي أيضا تستطيع تحقيق ذلك داخل الفرد نفسه، أي أن الفرد يستخدم اللغة كأداة للاتصال بينه وبين نفسه وذلك للتعبير عن أفكاره ورغباته وعواطفه وانفعالاته.

فاللغة تعبر عن المطالب والحاجات النفسية وتساهم أيضا في إشباعها أي بفضلها يمكن تذوق الفنون والأدب والشعر...إلخ.

إن اللغة خير أداة لإعطاء صورة صادقة عما شاهده بتحليل الوضع المشاهد وأجزائه كما أنها خير وسيلة لتأليف نفس هذه الصورة في ذهن المستمع وتركيبها⁽⁸⁾.

ج- الوظيفة الفكرية والثقافية:

يرى البعض بأن اللغة وظيفة فكرية بالدرجة الأولى، فهم يعرفونها بأنها رموز صوتية تعبر عن أفكار الفرد للآخرين ومن خلالها يتلقى أفكارهم.

فاللغة وسيلة للتفكير لدى الفرد ولأزمة لا غنى عنها، على نحو ما ذهب إليه إدوارد ساپير Edward Sapir، كما أنها ذات فاعلية لنقل المعلومات والمعارف وعلى هذا لا يجوز الفصل بين اللغة والفكر فهي وسيلة إبراز الفكر وعماد التفكير الصامت والتأمل.

إن العلاقة بين اللغة والفكر علاقة وطيدة، فاللغة تقدم للفكر تعاريف جاهزة وتصف الأشياء بخصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها وتساعد المفكر في عمله، إذ تزوده بصيغ وتعبيرات معروفة وتضع تحت تصرفه أساليب مدروسة⁽⁹⁾.

3- اللغة كظاهرة اجتماعية:

تشير اللغة لجميع التعبيرات (منطوقة أو مكتوبة)، والإشارات والحركات المستخدمة في عملية الاتصال الرمزي، والتفاعل بين الأفراد. إذ تعتبر سلوك توجهه معايير ومعاني، وقيم معينة في مواقف التفاعل التي تحددها المناسبات الاجتماعية المختلفة، وبذلك يتضح أن اللغة والتفاعل في حالة مصاهرة دائمة وهو ما أكده "دي روبرتي" عندما ذهب إلى أن ظهور المعرفة، ونموها يعتمد على التفاعل بين الأفراد والأجيال، وأن المعرفة لا يمكن أن تظهر وتستمر دون أن توجد لغة تحملها، وأن اللغة لا يمكن أن تظهر بدون وجود تفاعل ذهني واجتماعي كامل بين أعضاء المجتمع⁽¹⁰⁾.

وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية تعرف بأنها تفاعل بين شخصين أو أكثر يتعين لإتمام هذا التفاعل بينهما أن يكون الفعل الإنساني الصادر عن شخص معين معتمدا على صدور فعل عن شخص آخر⁽¹¹⁾. وأن مجموعة الألفاظ والعبارات التي استخدمها للتعبير عن أفكاره بمثابة ظاهرة اجتماعية على نحو ما ذهب إليه "دور كايم".

ومن ثم فإن اللغة شأنها شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى، تنطوي على صفات وخصائص ذاتية، من نوع خاص جدا، وذلك لأنها

تختلف عن الظواهر النفسية، وذلك لكون تلك الظواهر لا توجد إلا داخل شعور الفرد وبسببهم، ولهذا اعتبرت الظاهرة اللغوية، مع بقية الظواهر الاجتماعية الأخرى، ظواهر من نوع خاص على نحو ما وهب عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركايم" وبحكم أن اللغة عنصر أساسي من عناصر التراث الاجتماعي، وواحدة من الظواهر الاجتماعية التي تشكل الواقع الاجتماعي، فإنها تتصف بمجموعة من الخصائص التي تميز الظواهر الاجتماعية وتحدد ماهيتها.

1- الخصائص المميزة للظاهرة اللغوية كظاهرة اجتماعية:

تعتبر اللغة كركيزة أساسية للتراث الاجتماعي والثقافي الذي هي جزء منه، وذلك لأنها بمثابة الوسيلة الأساسية للتخاطب، والتفاهم، وتبادل الآراء، والاتفاق على أساليب التفكير والعمل، وعليه تتوفر لها الخصائص التالية:

1-4- تتصف اللغة كظاهرة اجتماعية بتلقائية النشأة: أي أنها بحكم تراكماتها التاريخية وبحكم أنها تنشأ خارجة عن الأفراد لأنها من صنع الجماعة، ومحصلة التراكمات التاريخية للموروثات الاجتماعية، والثقافية، فإنها تكسب خاصية التلقائية حيث يتناقل الخلف عن السلف مفرداتها، وعباراتها، وأساليبها، ويخضعون لأحكامها وقواعدها، ويحترمون دلالاتها، وتركيباتها، ويكتسبون عناصر اللغة المتميزة Emics والسمات الصوتية المميزة لها Etics⁽¹²⁾.

وبذلك تكون اللغة بمثابة القناة التي يتلقى من خلالها الخلف عن السلف أصول العادة، والأساليب اللغوية، والدلالات الصوتية المميزة للغة الجماعة وثقافتها، واللهجات اللغوية المميزة لها.

4-2- تماز اللغة أيضا باعتبارها ظاهرة اجتماعية بخاصة
العمومية والانتشار حيث يشارك فيها عدد من الأفراد والجماعات يستخدمون مفرداتها، وتعبيراتها، وأساليبها ودلالاتها الصوتية المميزة لها، كما أنها تظهر بين من يستخدمونها كوسيلة للتفاعل والاتصال فيما بينهم، في صورة واحدة إلى حد ما خلال فترة زمنية طويلة، إضافة لذلك، فاللغة تستخدم في مختلف المجتمعات البشرية رغم تنوع مفرداتها، وتركيباتها ولهجاتها، وأساليبها، ودلالاتها الصوتية المميزة لكل منها، بالنسبة للمجتمعات، والجماعات المحلية التي تدخل في صميم حياتها، وتنظيماتها.

4-3- تتصف اللغة كظاهرة اجتماعية بخاصة النسبية؛ وذلك
لأنها رغم عموميتها وتكرارها بين الأفراد والجماعات، والمجتمعات، فإن اختلاف الجماعات الاجتماعية والمجتمعات، وتمايز موروثاتها الثقافية لا تجعلها توجد على شاكلة واحدة من حيث المفردات والكلمات، والقواعد، والتركيبات اللغوية، والأساليب المستخدمة للتعبيرات، والدلالات الصوتية المميزة لها، إضافة إلى انقسامها إلى لهجات اجتماعية.

رغم ذلك فإن ثمة وجوه شبه تبقى من قريب أو بعيد في أصول مفرداتها وبعض مظاهر قواعدها، وبعض الأساليب اللغوية، ودلالاتها

الصوتية، وذلك ما هو واضح بالنسبة لطوائف اللغات الهندية الأوروبية، التي رغم ما بينها من اختلافات ما تزال هناك بعض الدلالات التي تشير لما بينها من صلات ترجع لأصلها الأول الذي تفرعت منه.

44- وتشكل جبرية اللغة إحدى الخصائص الأساسية المميزة لها، باعتبارها ظاهرة اجتماعية، وهي الخاصة التي أولاها عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركايم" مزيداً من اهتمامه في تعريفه للظاهرة الاجتماعية، حيث اعتبرها ضرباً من ضروب السلوك، الذي يباشر نوعاً من الإلزام والقهر الخارجي على الأفراد ويرجع ذلك في أساسه لكون اللغة كظاهرة اجتماعية من صنع العقل الجمعي. وأنها تعبر عن رغبات المجتمع وأفكاره، وتخضع لمنطق العقل الجمعي، ولذا فإننا نستخدم لغة جماعاتنا الاجتماعية، ونلتزم بمفرداتها، وأساليبها وتعبيرها، والدلالات الصوتية للحروف، والمعاني المرتبطة بالكلمات، ولا نخرج عنها لأننا لو خرجنا عنها تعرضنا لصور الجزاءات الاجتماعية. سواء كانت مادية أو معنوية.

45- تتسم اللغة بخاصية التساند وتبادل الاعتماد والتأثير مع الظواهر الاجتماعية الأخرى: بذلك تمتاز الظاهرة اللغوية بكونها متساندة وظيفياً مع بقية الظواهر الاجتماعية الأخرى، في تشكيل الواقع الاجتماعي. الذي يتألف من مجموع تلك الظواهر، وتتحدد جوانبه الثقافية والاجتماعية والشخصية بطبيعة تلك الجوانب التي تشكل عناصر الظواهر الاجتماعية بما فيها الظاهرة اللغوية، تلك العناصر التي أكد عليها علماء الاجتماع ومنهم "تالكوت بارسونز" على ترابطها وتبادلها

والاعتماد والتأثير، وطالما أن العناصر الثقافية والاجتماعية، والشخصية عامة، ومشاركة بالنسبة لجميع الظواهر اللغوية، فإنها بذلك تشكل محورا للترابط، والالتقاء، وتبادل التأثير والاعتماد فيما بين الظواهر الاجتماعية والظاهرة اللغوية، وذلك بعينه ما جعل الظواهر الاجتماعية بما فيها اللغة تنطوي على صفات ذاتية من جنس خاص جدا، تميزها عما عداها من الظواهر النفسية، وذلك لأن الظواهر النفسية لا توجد إلا داخل شعور الفرد وبسببه في حين أن الظاهرة اللغوية لها تجسيدها الخارجي وتوجد بحكم عوامل ثقافية واجتماعية خارج شعور الفرد، رغم أن لها انعكاسا على وجدان الفرد وتفكيره بالصورة التي تجعل سلوكه اللغوي مرتبطا بالسياقات الاجتماعية، والثقافية للنماذج الاجتماعية للمجتمعات المختلفة (13).

6-4- وتتصف الظاهرة اللغوية كظاهرة اجتماعية بخاصية الشئئية، وذلك لأن اللغة سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكون اللغة سلوكا يعم في المجتمع، ويتكرر حدوثه ومستقل عن الصور التي تشكل بها في الحالات الفردية. فإن اللغة تخضع للملاحظة ويمكن مشاهدتها. التحقق منها، سواء كانت اللغة في شكل دلالات صوتية لحروف الكلمات. أو في شكل كلمات وعبارات، وأساليب مميزة، أو في صورة دلالات ومعاني لتلك الأساليب اللغوية وهي موزعة بين لغة الأدب (شعر، قصص، نثر أدبي... الخ) أو بين اللغات التطبيقية للعلوم المختلفة، وذلك ما تؤكدته الدراسات التطبيقية المعاصرة، التي استهدفت التحقق من أبعاد السلوك اللغوي في غرفة الدراسة، من خلال قياس التفاعل اللغوي بين التلاميذ والمدرس، بتحديد مقدار الكلمات التي يستخدمها كل من

التلاميذ والمدرس خلال إلقاء الدرس هذا بالإضافة إلى العديد من الدراسات التي استهدفت تناول اللهجات المتفرعة عن اللغة العربية في الوطن العربي، وعلاقتها باللغة الفصحى من ناحية، وعلاقتها ببعضها من ناحية أخرى. سواء محيط دول العالم العربي عامة⁽¹⁴⁾. أو في نطاق الخليج خاصة⁽¹⁵⁾. وتعد الدراسة الإمبريقية التي أعدها "اليازأوأوليفر" "L- Elias- Olivers" بعنوان "استخدام اللغة في المجتمع المحلي لشيكاغو" عام 1975م. نموذجاً للدراسة الإمبريقية الكمية للمعايير اللغوية السائدة في المجتمع المحلي. حيث كشفت عن كيفية اختيارات الطبقة العاملة، والطبقة الدنيا من بين اللهجات الإسبانية الأربع السائدة. بالإضافة للغتهم الإنجليزية المحددة الخصائص والسمات بين الجماعات "العرقية" بالمجتمع المحلي لشيكاغو⁽¹⁶⁾.

ثم يأخذنا "كوهن وسوابن" إلى سياق شمال أمريكا لمناقشة بعض الكتابات النظرية المتداولة، وغيرها من النصوص العامة لنماذج لغة التعليم، حيث اهتموا بمعالجة ذلك على مستوى الجماعات الكبرى، والجماعات الصغرى وعلاقتها باللغة المسيطرة واللغة التابعة، وأثر كل منهما على برامج تعليم اللغة، وما يترتب على سيطرة لغتين مثل الإنجليزية والفرنسية على المتعلم والسلوك اللغوي كما هو الحال في كندا وغيرها من دول العالم⁽¹⁷⁾. يضاف إلى ذلك العديد من الدراسات التي تناولت الأداء الوظيفي للغة في الاتصال والتعليم والتغير... الخ وهي جميعها تؤكد شيئية اللغة، وقابلية السلوك اللغوي للقياس، والتحقق التجريبي.

5. نظريات اكتساب اللغة:

شكلت هذه النظريات جدلا كبيرا بين النفسانيين واللغويين والتربويين ويمكن تصنيفها كما يلي:

أولا: نظريات التعلم والاشتراط (النظرية السلوكية):

يعتبر "جون واطسون" (1878 - 1958) رائد الاتجاه، حيث اقترح أسلوب الملاحظة كمنهج لدراسة السلوك، وقد اعتبر عملية التفكير بمثابة كلام الفرد مع نفسه، لذا نشر "واطسون" فصلا بعنوان "الكلام والتفكير" فسرفيه السلوك اللفظي على شكل القاعدة السلوكية المعروفة: منبه - استجابة - تعزيز ويشكل التعزيز للإستجابة اللفظية ضمانا لتكرار حدوث الاستجابة.

وفي سنة 1957 نشر "سكينر" كتابه المشهور "السلوك اللفظي" أو "السلوك اللغوي" وقد شرح فيه السلوك على أنه "مجموعة من العادات كغيرها من العادات السلوكية الأخرى"⁽¹⁸⁾، لذا فمن الممكن دراسة تركيبها من ناحية وتعليمها من ناحية أخرى.

ويمكن أن نستنتج مما سبق أن هذا الاتجاه يقوم على ما يلي:

1- دراسة ظاهرة اللغة مثل أي سلوك آخر: أي لا فرق بين تعلم اللغة وتعلم أي شيء آخر.

2- إهمال دراسة المعنى: لأنه ليس مظهرا خارجيا قابلا للدراسة بالمنهج العلمي الموضوعي، وقد أكد الباحثون السلوكيون أن كل مشكلة مرتبطة بالمعنى لا يمكن تناولها بكفاءة في إطار القاعدة منبه-استجابة.

وبناء على هذا فإن الباحثين يكادون أن يجمعوا على أن هذه النظرية لا تفسر عملية اكتساب اللغة بصورة فعالة إلا في المراحل المبكرة جدا من العمر، حيث يلعب التقليد والتعزيز دورا مهما في عملية اكتساب اللغة.

ثانيا: النظريات العقلية:

السلوكيون يرون أن التعلم يمكن أن يكون متشابهًا بين جميع الناس، لأن هذا التعليم محكوم بالعوامل الخارجية، وبالتالي نضمن أن كل الناس يتعلمون بنفس القدر إذا ما استطعنا أن نختار ظروفًا تعليمية متشابهة.

كما يبسط السلوكيون الأمور ويرون بأن الفكر هو اللغة لكن الاتجاه العقلي يعتبر اللغة تنظيما عقليا فريدا من نوعه وتستمد حقيقتها من حيث أنها أداة للتعبير والتفكير.

يعد "تشومسكي" من أشهر علماء اللغة في الولايات المتحدة الأمريكية ويرى أن الطفل يتعلم القواعد (القوانين) التي تسمح له بإنتاج وفهم عدد غير محدود من التنوعات النحوية، وتسمى نظرية تشومسكي نظرية "النحو المتحول".

ومما يؤكد عليه العالم هو الجهاز العصبي للإنسان يحتوي على بنية عقلية تتضمن مفهومها لغويا موروثا، لهذا فإن لكل طفل استعداد وراثي لتعلم أي لغة بشرية.

ومما يدعم هذا الرأي كون الطفل في أولى مراحل عمره وحتى البلوغ له القدرة على تعلم لغة أولغتين دون تدريب خاص، أما بعد البلوغ فالمهمة أصعب لأن تعلم لغة يتطلب دراسة واستعمال وسائل تربوية.

كما أكد "تشومسكي" في الستينات على الدور الأساسي الذي يلعبه النضج في عملية اكتساب اللغة، أما "لينبرج" (1967) أكد أن كل طفل عادي يكتسب نظاما لغويا كنتيجة للنضج، أي أن النمو اللغوي مرتبط بالنضج الجسمي عموما والنضج الحركي خصوصا.

بالإضافة إلى أعمال كل من "تشومسكي"، و"لينبرج" فإن أهم مساهمة لعلماء النفس اللساني، الذين يدافعون عن الاتجاه العقلي في اكتساب اللغة، تتمثل في إقامة علاقة بين المعنى والنمو المعرفي وفيما يلي شرح لإكتساب اللغة حسب النظريات المعرفية.

ثالثا: النظريات المعرفية:

يعتبر "جون بياجي" رائد هذا الاتجاه، حيث اهتم بدراسة النمو المعرفي عند الطفل من الميلاد إلى الرشد، وقد ألف كتاب أسماه "اللغة والتفكير" ويقوم جوهر هذه النظرية على التأكيد بأن نمو وارتقاء الكفاءة اللغوية إنما هو نتيجة التفاعل بين الطفل وبيئته.

إضافة إلى بياجي فإن العالم الروسي فيكوتسكي VYCOTSKY (1962) ألف كتابا تحت عنوان "لتفكير واللغة" انتقد في آراءه الاتجاه

العقلي في اكتساب اللغة وانتقد فيه أيضا أفكار بياجيه وخاصة فكرته الأساسية المتعلقة بالتمركز حول الذات (عند الطفل).

إذن نستنتج أن عملية اكتساب اللغة عملية معقدة ذات وظيفة إبداعية وليست عملية بسيطة تقوم على الاشتراط أو الاستعداد الوراثي ولعل تداخل عوامل عديدة في اكتساب اللغة هو ما أدى إلى بروز الموقف التكاملي.

رابعاً: الموقف التكاملي

نلاحظ أن كل نظرية تركز على جانب أو عامل من العوامل التي تدخل في عملية اكتساب اللغة، وعليه فقد ظهر اتجاه تكاملي⁽¹⁹⁾ في شرح عملية اكتساب اللغة، ويقوم هذا الاتجاه على: أن الإنسان قد زود بيولوجيا باستعداد خاص لتعلم اللغة، ورغم هذا الاستعداد فإن التجربة المستمرة باستعمال اللغة شرط أساسي في اكتساب اللغة معنى هذا أن الاستعداد البيولوجي وحده ليس كافياً ما لم يقيم على الاستعمال والممارسة.

وعكس موقف السلوكيين الذين يقوم تصورهم لعملية اكتساب اللغة على الدور السلبي للطفل، فإن أغلب المنظرين المحدثين يؤكدون على الدور الإيجابي والنشط الذي يؤديه الطفل في عملية اكتساب اللغة.

كما أن هؤلاء الباحثين لا يغفلون دور الأفراد الآخرين الذين يحتك بهم الطفل في عملية اكتساب اللغة

6. مراحل اكتساب اللغة:

يمكن حصرها في جانبين: الأول يرتبط بالمتغيرات غير المدرسية (سواء ما قبل الدخول للمدرسة أو بعده) كالنموذج التربوي الذي تربي عليه الطفل أي المحيط الأسري للطفل، ووسائل الإعلام التي ربما يتفاعل معها، ودور الحضانة ورياض الأطفال في بعض المدن.

أما الجانب الثاني: فيتعلق الأمر بالعوامل المرتبطة بالمدرسة وخاصة طرق التعليم (تعليم اللغة الخاصة) ودرجة تأهيل المتعلم ومحتوى الكتاب وإخراجه، والثنائية اللغوية أو التعداد اللغوي.

1.6 .مرحلة ما قبل المدرسة:

يتحكم في النمو اللغوي خلال هذه المرحلة (من الميلاد إلى سن السادسة) عدة عوامل ترتبط بسلوك الأبوين وخاصة إتصالهما بالطفل (لغة الاتصال) هل هي لغة مشوهة تجاري الطفل في لغته الطفيلية، أم يحاولان تعليمه مفردات وجمل سليمة؟ وما هي أصلا اللغة التي يخاطبانه بها؟ كما للأخوة وباقي أفراد العائلة دورا في تعليم الطفل اللغة، سواء بتقليد الطفل للغة الكبار أو بقيام الوالدين وغيرهما بتعليم الطفل عن وعي وإدراك لغة سليمة منذ الصغر.

وفي هذه المرحلة يعيش الطفل عالما خاصا به نتيجة ما يسميه "بياجي" بالتمركز حول الذات، حيث يخاطب الطفل في هذه المرحلة لعبه والأشياء الجامدة ويقيم حوارا في شكل مسرحي بين اللعب والأشياء التي يعبث ويلهو بها كما أن جهاز التلفزيون أصبح يستدعي

انتباه الأطفال وهم في سن مبكرة جدا ولولوقت قصير، يلتقطون منه كلمات وألحانا وصورا وكلما كبر الطفل ازداد تعلقه بجهاز التلفزيون وخاصة برامج الطفل، ولهذا فإن بعض الباحثين⁽²⁰⁾، يثيرون موضوع التأثير السلبي للتلفزة في لغة الأطفال والأحداث، فقد أشاروا للضعف (الضغط) اللغوي الذي يعانيه المراهقون مهما كان عرقهم أو وسطهم الاجتماعي، ذلك أن لغة التلفزة ذات أسلوب مباشر وعليه فالطفل يبقى رهين لغة بسيطة جدا، ذلك أن الطفل يجب أن يتحصل على تراكيب تعبيرية قبل سن السادسة.

كما أن الأطفال الذين يوضعون في دور الحضانة أو رياض الأطفال بسبب عمل أمهاتهم أو مرضهن أو غير ذلك من الأسباب، هم أكثر حظا في اكتساب ثروة لغوية على يد مربيات أو بفضل التفاعل مع أطفال آخرين في جو نفسي اجتماعي وبيئة مادية أكثر غنا وتنوعا من محيط الأسرة.

2.6. مرحلة التعليم الأساسي:

تشمل المرحلة الأولى من الدراسة تسع سنوات، مرحلة التعليم الأساسي، ثم مرحلة التعليم الثانوي.

إذ يدخل الطفل إلى المدرسة وعمره ست سنوات، ويتحكم في عملية اكتسابه للغات عدة عوامل متفاعلة فيما بينها ومتفاعلة مع العوامل الأسرية بالإضافة إلى المحيط الثقافي والاجتماعي ومدى تحفيزه وتشجيعه على احترام اللغة وضرورة تعلمها وإتقانها، هي التي تسهم في تكوين دافعية لدى التلميذ لإتقان اللغة.

7. التنوع الثقافي والتنوع الغوي:

تعتبر اللغة من المكونات الهامة والرئيسية للثقافة، لذا فإن التنوع في الثقافات ينتج عنه تنوع في اللغات.

ويرى الباحثون أن هناك نوعين من اللغة في إطار الثقافة يطلق على النوع الأول اللغة الرسمية ويطلق على النوع الثاني اللغة العامية.

اللغة الرسمية هي لغة رمزية مكتوبة تتصف بدرجة عليا من التسلسل المنطقي والتكامل الرمزي المجرد وتوظف في إطار المؤسسات الرسمية والتربوية أما اللغة العامية هي لغة الاتصال في الحياة العامة وتتميز بالسهولة والبساطة كما تتميز بدرجة أدنى من التسلسل المنطقي والتجريد الرمزي⁽²¹⁾

فاللغة الرسمية هي لغة المدارس والمؤسسات واللغة العامية أو كما سمي بالدارجة هي تلك التي تتكون من لهجات عديدة، ولهذا نجد

أن كل وسط اجتماعي لديه اللهجة الخاصة به (كما هو الحال في الجزائر فكل منطقة لديها لهجة خاصة تختلف بها عن المناطق الأخرى).

بحيث أن اللغة العامية تشمل على منظومة من اللهجات المختلفة ولكل فئة اجتماعية أو وسط اجتماعي لهجته الخاصة به وطرائقه في التعبير والتواصل.

يضاف إلى هذا أن هناك ما يسمى باللغة الخاصة أو الوظيفية وعلى سبيل المثال لغة الطبيب تختلف عن لغة الفلاح.

فالتباين اللغوي يعود في نهاية الأمر إلى التباين في أنماط الحياة الاجتماعية، وإلى التباين في أنماط التفكير والتصورات التي تحيط بكل فئة اجتماعية محددة.⁽²²⁾

ويرى "برنشتاين" Bernstein Basil أن الوسط الاجتماعي يحدد مستوى اللغة وشكلها عبر أولويات اجتماعية محددة.

وباعتبار اللغة نظاما اجتماعيا فهذا يفرض علينا اعتبارها أيضا نظاما للاتصال والمعرفة والإدراك، وهذا يعني أنه يجب أن ننظر إلى اللغة بوصفها معطى اجتماعيا يتحدد ويتشكل في إطار الوسط الاجتماعي شكلا ومضمونا⁽²³⁾.

وبهذا فكل وسط اجتماعي ينتج اللغة الخاصة به والتي يتم تحديدها من خلال المعطيات المعرفية لذلك الوسط والمعطيات المادية، أي الأشياء التي توجد في الوسط وأيضا نمط العلاقات الاجتماعية السائدة، وهذا ما يفسر التباين اللغوي للأفراد الذي يعود كما أشرنا

إليه سابقا إلى التباين الاجتماعي، والثقافي القائم بين الأوساط الاجتماعية.

كما أن مستوى لغة الأفراد يتحدد بمستوى الحياة الاجتماعية والثقافية للوسط الذي ينتمون إليه (فمستوى اللغة يؤثر على مستوى النجاح المدرسي الذي يحققه أطفال الفئات الاجتماعية المختلفة).

أظهرت بعض البحوث أن الأطفال الذين ينحدرون من أوساط اجتماعية عليا يستطيعون تحقيق نجاح أكبر بالقياس إلى أبناء الفئات الاجتماعية الدنيا، ويرجعون ذلك إلى وجود تماثل وتجانس الثقافة المدرسية وثقافة الأوساط الاجتماعية الميسورة، وخاصة فيما يتعلق باللغة بوصفها المؤشر الثقافي الذي يحدد مستوى ثقافة اجتماعية ما (24).

- إذن من خلال لغة الفرد نستطيع تحديد الوسط الاجتماعي والثقافي الذي ينتمي إليه الفرد، حيث أن الوسط الثقافي المتميز بالغنى يساعد أفرادَه على تحقيق النجاح، ويمارس تأثيرا إيجابيا على حياتهم. عكس الوسط المتميز بالفقر الاجتماعي والثقافي، فإنه يمارس تأثيرا سلبيا على حياة الأفراد الذين ينتمون إلى ذلك الوسط.

خاتمة :

بناء على ما سبق يمكننا استخلاص أن اللغة نسق رمزي مفتوح يحقق الاتصال بين الأفراد، وأن لها ضوابط تتحكم فيها، وكذا خضوعها لطبيعة المحيط الاجتماعي والثقافي لمستخدميها مما يخولها أن تشكل

ظاهرة اجتماعية قابلة للتغير والنمو. بناء للخصائص المميزة لها من حيث تلقائية النشأة العمومية والنسبية والجبرية، وكذا التساند وتبادل الاعتماد والتأثير مع الظواهر الاجتماعية الأخرى.

- بالإضافة إلى جملة الوظائف التي تقوم بها على الصعيد الاجتماعي والنفسي والفكري، إذ لم يجعل ذلك من اكتسابها مرهون بالفرد بحد ذاته، ومحيطه الذي يعيش فيه زد على ذلك التنوع الحاصل على المستوى اللغوي، والذي ناتج في الأساس عن التنوع في الثقافات، وذلك ما يفسر لنا أن لكل نمط اجتماعي لغة خاصة به يتم تحديدها من خلال المعطيات المعرفية لذلك الوسط، والمعطيات المادية، والعلاقات الاجتماعية السائدة، وهذا ما يفسر التباين اللغوي بين الأفراد كما أشرنا إليه.

الهوامش:

⁽¹⁾ دكتور حسين حمدي الطوبجي: وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم، (الكويت، دار العلم 1982)، ص 27.

⁽²⁾ Fitzgerald. Jack D Cox. Steren M : Unraveling social science, (Chicago. Rand Mc Nally College Publishing Company, 1975), PP2-13.

⁽³⁾ السيد علي الشتا: علم الاجتماع اللغوي، (القاهرة : مركز الإسكندرية للكتاب 1998)، ص 44-45.

⁽⁵⁾ بديع يعقوب: فقه اللغة وخصائصها، بيروت : دار العلم للملايين، 1982، ص 13.

⁽⁴⁾ بن عيسى حنفي: محاضرات في علم النفس اللغوي، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973، ص76.

عبد الرحمان حاج صالح: الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة، مجلة فصلية يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، العدد 3، بدون سنة نشر⁽⁵⁾، ص 127.

⁽⁸⁾ بن عيسى حنفي: المرجع السابق، ص77.

⁽⁹⁾ بن عيسى حنفي: المرجع السابق، ص 78.

⁽¹⁰⁾ دكتور السيد علي الشتا: البناء النظري لعلم الاجتماع، الخبر، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، 1984م، الفصل الحادي عشر.

⁽¹¹⁾ نقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمود عوده وآخرون، (القاهرة، دار المعارف، 1982م)، ص458.

⁽¹²⁾ Carol. M. Aspects of language and culture, San Francisco, Chandler et charp Publishers, INC. P.23.

⁽¹³⁾ إميل دور كايم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، تر: د.محمود بلقاسم ود. محمد بدوي، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1950). ص32.

⁽¹⁴⁾ عبد العزيز عبد الله، نحو تفصيل العامية في الوطن العربي، (الرباط: المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، جامعة الدول العربية، 1972م).

⁽¹⁵⁾ دكتور عبد العزيز مطر: ظواهر نادرة في لهجات الخليج العربي، (قطر: 1976م).

⁽¹⁶⁾ Pride, J.B. Sociolinguistic. Aspects of language learning and teaching Oxford, (Oxford University press, 1979).

⁽¹⁷⁾ Cohen.A et M.Swain, Bilingual Education, The "Immersion" Model in the North American Contest. Tesol Quarterly. 10, I.1970.

⁽¹⁸⁾ مصطفى عشوي: المدرسة الجزائرية إلى أين ؟، دار الأمة، الجزائر، 1991، ص89.

⁽¹⁹⁾ مصطفى عشوي: مرجع سابق، ص 96.

⁽²⁰⁾ مصطفى عشوي: مرجع سابق، ص 105.

⁽²¹⁾ أسعد علي وطفة: مرجع سابق، ص 137.

⁽²²⁾ علي أسعد وطفة: نفس المرجع السابق، ص 137.

⁽²³⁾ علي أسعد وطفة: نفس المرجع السابق، ص 163.

²⁴ علي أسعد وطفة : نفس المرجع السابق ، ص168.

